تاريخ عمال الزراعة والتراحيل

في مصر والعالم
منذ عهد السخرة
حتى سنة ١٩٦٩

الفصل الثالث

حياة
عمال التراحيل

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

السُخرة والعمل الإنشائي ..

ظلت السُخرة بوجهها السافر ، والمقنع مرتبطة تاريخياً بالعمل الإنشائي والزراعي بحيث صاحبت مسيرته الطويلة منذ آلاف السنين عبر كل النظم الاجتماعية التى عاشت على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، سواء أكانت هذه النظم عبودية أو إقطاعية أو حتى رأسمالية.. حيث كان العبيد باعتبارهم القوى العاملة المنتجة يُرغمون على السُخرة فى الأشغال الإنشائية والزراعية وفقاً للعلاقات العبودية السائدة التى لا تضفى عليهم أى شئ من الحريات المدنية .. بل ولا تعطيهم حتى حرية الحياة لدرجة أن قضاءهم وقدرهم كان معلقاً بإرادة سيدهم الذى يمنحهم الموت والحياة وفق مشيئته، يشهد على ذلك مصارعات الأسود ، المشهورة فى روما القديمة، هذه المصارعات الرهيبة التى كان يُلقى إليها بالعبيد غصباً عنهم لمصارعة الأسود ومصارعة بعضهم بعضاً حتى الموت فى ساحات يحضرها آلاف المتفرجين من طبقة الأسياد فى المجتمع الرومانى.. ويشهد على ذلك أيضاً قوانين اليونان القديمة التى لم تنص نصاً واحداً من أجل حماية العبيد الذين كان دمهم مُباحاً وحياتهم مهدرة فى حين أن القوانين كلها قد وضُعت لحماية طبقة الأسياد والأشراف فى الدولة اليونانية القديمة التى قدمت وللأسف للعالم كله اسم الديمقراطية ، والتى قد تواجد فى أيامها أعظم الأفكار الفلسفية المشهورة..

ولم تنته السُخرة العبودية بانتهاء العصر العبودى بل بقيت فى عهد الإقطاع الذى فرضها على الأقنان باعتبارهم أيضاً القوى العاملة والمنتجة، وذلك طبقاً للعلاقات

الإقطاعية السائدة التى لم تعترف كلياً بحرياتهم المدنية.. وحتى بعد زوال الإقطاع فقد عاشت السُخرة فى رحاب الرأسمالية التى كانت تمارسها فى كل مناسبة تقتضى مصالحها ذلك بدليل تسخير الزنوج فى إصلاح عشرات الملايين من الأفدنة فى أمريكا الشمالية ، وتسخير الشعب الأفريقى فى مزارع الكاكاو والمطاط وفى مناجم رودسيا وجنوب أفريقيا.. وتسخير الشعب المصرى فى حفر قناة السويس، وذلك من أجل مصالح الرأسمالية الأوربية والأمريكية، التى كانت تدعى كذباً معادتها للسخرة باعتبارها مظهراً من مظاهر العبودية والإقطاع ، وبأنها عمل لا يليق بالإنسانية على الإطلاق..

وبسبب هذا أصبح تاريخ العمل الإنشائي والزراعى هو نفس تاريخ السُخرة والعمل الإكراهى، وبالتالى أصبحت المنشآت القديمة ، والوديان الزراعية القديمة أمارة على السُخرة التى عرفتها البشرية منذ آلاف السنين أى منذ تطور المجتمع البشرى من المجتمع الشيوعى البدائى إلى المجتمع العبودى الذى انقسم الناس فيه إلى طبقات..

والعامل الرئيسى فى ارتباط السُخرة بالعمل الإنشائي والزراعى ليس الضرائب التى قد ابتدعتها الدولة القديمة ، والتى كانت تقوم بتحصيلها عن طريق انتزاع العمل الجسمانى لإقامة المشاريع الإنشائية والزراعية، كما يزعم السادة من علماء الاجتماع البرجوازيين الذين يهمهم جداً أن يؤكدوا أن الإنسان المُسخر ليس عبداً، ولا قناً، ولا عاملاً، وإنما هو مجرد إنسان حر لم يدفع ما عليه من ضرائب للدولة، بمعنى أنه مجرد إنسان مدين فقط، وذلك طبعاً بقصد تعمية الجماهير عن حقيقة الانقسام الطبقى والصراع الطبقى فى الحياة والمجتمع..أما العامل الرئيسى فى ذلك هو ممارسة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان باعتبارها القاسم المشترك فى العبودية

والإقطاع والرأسمالية، وباعتبارها تمثل جوهر العلاقات الاجتماعية التى سادت فى هذه النظم الاجتماعية الثلاث..حيث كانت هذه العلاقات الاجتماعية تعبيرًا عن تقسيم المجتمع إلى طبقات سيدة وظالمة وإلى طبقات مستعبدة ومظلومة من العبيد والأقنان والعمال، الذين كانوا ومازالوا يمثلون القوى الاجتماعية الشغالة والمنتجة عبر كل الأزمان حيث حملوا على أكتافهم ملايين الملايين من أثقال الصخور والأحجار، وحفروا بأظافرهم أعمق أعماق الأرض بواسطة السُخرة التى فُرضت عليهم وفقاً لعلاقات استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وليس وفقاً لعلاقات حقوقية وقانونية ومدنية بسبب مديونيتهم للدولة.. يؤيد ذلك أن حالات السُخرة التي فُرضت على الفلاحين المصريين فى عهد محمد على وسعيد باشا لم تفرض عليهم بسبب ديونهم للدولة ولكن فرضت عليهم لانتمائهم اجتماعياً إلى الطبقات المستعبدة والمقهورة فى المجتمع، هذه الطبقات التى قامت بتغذية كل أشغال السُخرة فى كل العصور.. ولذلك فقد كانت الجموع المسخرة لا تحمل صفة المديونية بل كانت تحمل صفة طبقية ثابتة تؤكد انتسابها اجتماعياً إلى الطبقات العاملة والمقهورة فى المجتمع، هذه الطبقات التى قد انتزع منها أباطرة الصين عملها الجسمانى فى بناء سور الصين العظيم.. والتى انتزع منها أيضاً الفراعنة عملها الجسمانى فى بناء الهرم الأكبر الذى بناه الملك خوفو قبل الميلاد بألفى وخمسمائة سنة بأحجار جاءت من بلاد النوبة كان وزن الواحدة منها ٣٠٠ طنًا، والذى قد سخر فى بنائه مائة ألف عامل لمدة عشرين سنة.. وهذا يعنى أن الملك خوفو قد انتزع وحده من الشعب المصرى بواسطة السُخرة ما يقرب من ٧٩٨ مليون يوم عمل فى سبيل الحفاظ على جثمانه الملكى حتى يقوم سليماً معافياً فى يوم البعث والنشور..

ومن أبرز حوادث السُخرة فى العصور القديمة ما ورد أيضاً فى العهد القديم،

أخبار الأيام الثانى، بالإصحاح الأول.. وأمر سليمان ببناء بيت لاسم الرب وبيت لملكه، وأحصى سليمان سبعين ألف رجل حمال وثمانين ألف رجل نحات فى الجبل، ووكلاء عليهم ثلاثة آلاف وستمائة، وأرسل سليمان إلى حُوارم ملك صور قائلاً كما فعلت مع داوود أبى إذ أرسلت له أرزاً ليبنى له بيتاً يسكن فيه فها أنذا أبنى بيتاً لاسم الرب إلهى لأقدسه له لأوقد أمامه بخوراً عطراً ولخبز الوجوه الدائم.. ثم يقول سليمان.. وأرسل لى خشب أرز وصندل من لبنان لأنى أعلم أن عبيدك ماهرون فى قطع خشب لبنان. وهو ذا عبيدى مع عبيدك، وليعود إلى خشباً بكثرة لأن البيت الذى أبنيه عظيم وعجيب، ها أنذا أعطى للقطاعين الخشب عشرين ألف كرٍ من الحنطة طعاماً لعبيدك وعشرين ألف كر شعير وعشرين ألف بث خمر وعشرين ألف بث زيت..

فقال حُوارم ملك صور بكتابة أرسلها إلى سليمان، لأن الرب قد أحب شعبه جعلك عليهم ملكاً، ثم قال.. والآن الحنطة ، والشعير ، والزيت ، والخمر الذى ذكرها سيدى فليرسلها لعبيده، ونحن نقطع خشباً من لبنان حسب كل احتياجك ونأتى به إليك أرماثاً على البحر إلى يافا وأنت تصعده إلى أورشليم..

مصر هبة الإنسان..

مع تقديري للمؤرخ اليوناني القديم هيرودت ومقولته التي تقول.. مصر هبة النيل.. فإنني أنا العامل المصري أقول.. أن مصر هبة الإنسان.. أي الإنسان المصري العظيم الذي دخل مبكراً مرحلة فجر الضمير الإنساني فعرف ذاته ، وأهله ووطنه مصر ونيله الخالد مما مكنه من تأسيس أول مجتمع بشري على وجه الأرض هو مجتمع الشيوعية البدائية ، والمساواة البدائية ، ومرحلته الحياتية ، والمعيشية حيث الانتاج الجماعي والمشترك والاستهلاك الجماعي والمشترك. ومن ثم تزايد الإنتاج

رويداً رويداً حتى تضخم مما أدى إلى ظهور بوادر الملكية الفردية وظهور بوادر انقسام في قلب المجتمع المصري وقتئذٍ، مجتمع الشيوعية البدائية إلى طبقات في إطار مجتمع جديد هو المجتمع العبودي. مجتمع طبقة الأسياد الحاكمين ، والمالكين وطبقة العبيد المنتجين والمستعبدين.

ولكن الإنسان المصري العظيم رفض المجتمع العبودي الجديد مما جعله يتخطى مرحلة هذا المجتمع العبودي وما فيه من سُخرة مطلقة للعبيد بواسطة أسياد العبيد حيث قفز إلى المجتمع الإقطاعي ومرحلته ذات السُخرة المحدودة بحرية الإنسان وحماية شخص الإنسان لأول مرة في تاريخ المجتمعات البشرية القديمة مما أدى إلى قيام دولة الفراعنة الإقطاعية ، والاشتراكية من خلال الملكية العامة للأرض الزراعية التي كان يديرها الفرعون وكُهان المعابد حيث تقسمت مصر إلى ريفٍ زراعي ومدن حرفية وصناعية مما جعلها دولة إقطاعية ذات حضارة ملحوظة باختراعها الخط قبل الميلاد بقرابة ٣٣٠٠ عامًا وممارستها العلم والفن لقهر نهر النيل وتوظيفه لري الأرض الزراعية بعد تقسيم السنة الزراعية إلى ثلاثة أقسام الفيضان والبذر والحصاد مع علم المصريين الفراعنة من أقدم الزمان أن السنة مؤلفة من ٣٦٥ يومًا ونصف اليوم..

وفي ظل هذه الدولة الفرعونية والإقطاعية فإن الفلاح المصري لم يتسم باسم الرقيق ولم يُعامل معاملة الرقيق حيث كانت علاقته بالحكومة التي تدير الأرض الزراعية باعتبارها ملكية عامة هي علاقة دفع ريع الأرض بشكل عيني وأي تأخير في دفع هذا الريع يؤدي إلى ضرب الفلاح .. بواسطة شرطة الفرعون ولهذا فقد انتشر الصراع الطبقي في مصر الفرعونية ، مما أدى إلى انتشار الجمعيات ، والنقابات حتى العفاريت كانت لهم نقابة ، وذلك بجانب الإضرابات والثورات على حد قول

العلامة الألماني إميل لودفج الذي يؤيده الحكيم المصري القديم ايبور بقوله.. وثار العوام على الأمراء ، وعلية القوم،فتغيرت الأحوال فالمرأة المصرية التي كانت ترى وجهها في الماء أصبحت تملك مرآة..

ولذلك فقد اقتصرت السُخرة على الفلاحين في موسم الفيضان فقط ، واقتصرت أيضاً على العمل في أشغال البناء والتشييد مثل أشغال المقابر ،والمعابد والأهرامات التي بنى بعضها مقابل أجر عيني في بعض الأحيان مثلما حدث في مدينة الرمسيوم مدينة المقابر الملكية التي شهدت الكثير من الإضرابات العمالية المطلبية والسياسية..

هكذا أنقذ الإنسان المصري العظيم وطنه مصر القديمة من الغرق في ظلمات المجتمع العبودي. مجتمع طبقة الأسياد الحاكمين والمالكين والظالمين ومجتمع طبقة العبيد الذين كان يعاملهم الأسياد معاملة حيوانات الجر ويتصرفون في شأنهم ونسلهم بالبيع والشراء كحيوانات الجر وحيوانات الزرع والضرع ،ويعبثون بحياتهم وشخصياتهم الإنسانية بإجبارهم على مصارعة بعضهم لبعض إلى حد الموت وإجبارهم أيضاً على مصارعة الوحوش المفترسة حتى الموت..

السُخرة الإقطاعية المعمرة في مصر

والشعب المصري من أقدم الشعوب التي عرفت السُخرة في الأعمال الإنشائية وفي أشغال الري ، وفي حفظ جسور النيل خلال شهور الفيضان ، وفي حفر السواقي والمجاري المائية وإعداد المدقات أي الطرق القديمة ، وفي العمل في المناجم وذلك نتيجة للنشأة المبكرة للدولة الإقطاعية ، والمركزية في مصر قبل الميلاد بآلاف السنين بفضل النقلة المجتمعية ، والحضارية للمجتمع المصري من مجتمع الشيوعية البدائية والمساواة البدائية إلى المجتمع الإقطاعي دون المرور بالمجتمع العبودي حيث استعباد الإنسان للإنسان .. كما حدث في أغلب المجتمعات العبودية والبشرية القديمة على وجه الأرض..

ومن ثم فالإنسان المصري لم يُستعبد ، ولم يكن عبداً يباع ويشترى بفضل وجود المجتمع الإقطاعي في مصر القديمة الذي انقسم إلى طبقة الإقطاع والإقطاعيين وإلى طبقة الفلاحين ، والصناع المصريين كما تجلت طبقة الإقطاعيين المصريين في شخص الفرعون الملك والإله وفي كهان المعابد الفرعونية ولقد تحددت العلاقة الاجتماعية بين طبقة الفلاحين والصناع وبين طبقة الفرعون والكهان بعلاقة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان باعتبارها علاقة إقطاعية بخلاف علاقة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان باعتبارها علاقة عبودية..

ومع ذلك فقد أصبحت مصالح الفرعون وكهان المعابد تختلف عن مصالح الصناع والفلاحين الذين لم يكونوا أقناناً أي أشباه للعبيد.. كما كان منتشراً في

المجتمعات الإقطاعية الأخرى. ولقد تحولت هذه المصالح إلى حالة من التناقضات الطبقية التي كانت سبب الأسباب في قيام الدولة الفرعونية التي لم تكن حالة سلطوية ليست مفروضة على المجتمع المصري الإقطاعي من خارجه كما يقول انجلز وليست كذلك.. واقع الفكرة الأخلاقية.. أو صورة لواقع العقل.. كما يدعي هيجل..

ولذلك فالدولة الفرعونية هي نتاج المجتمع عند درجة معينة من تطوره وهي أيضاً إفصاح عن واقع أن المجتمع المصري قد وقع في تناقض مع ذاته لا يمكن حله. وعن واقع أن هذا المجتمع أي المجتمع المصري قد انقسم إلى تناقضات مستعصية هو عاجز عن الخلاص منها.. ولكيلا تبادر هذه الطبقات المتناقضة بالتهام بعضها بعضاً .. ويعيش المجتمع في نضال عقيم.. لهذا اقتضى الأمر قوة سلطوية تقف في الظاهر فوق المجتمع. قوة سلطوية تلطف الاصطدام الطبقي وتصفيه ضمن حدود النظام.. إن هذه القوة السلطوية المنبثقة من المجتمع والتي تضع نفسها مع ذلك فوقه شكلياً وتنفصل عنه أكثر وأكثر .. هي الدولة التي هي في جوهرها دولة طبقية..

والدولة المصرية كأي دولة قديمة كانت عبارة عن هيئة لتنظيم العنف بُغية استغلال الفلاحين والصناع المصريين لمصلحة الفرعون ودولة الفرعون وكهنة معابده عن طريق تقنين الظلم الاجتماعي بحيث تكون ممارسة هذا الظلم عملاً مشروعاً..

ولهذا اكتسبت الدولة الفرعونية ورجالها كغيرها من الدول القديمة والحديثة صلاحيات السلطة العامة المحاطة بالخوف والقداسة معاً وبالتالي أصبحت وظائفها السلطوية ذات احترام خرافي وبمقتضى هذه السلطة العامة قد فرضت السُخرة على الشعب المصري في بناء الأهرامات وفي الشغل في المناجم والمحاجر في العهد البطلمي.

العونة (السُخرة)..

ويحدثنا الشيخ يوسف الشربيني صاحب كتاب «هز القحوف في تفسير قصيدة أبي شادوف» عن العونة (السُخرة) في العهد المملوكي والعثماني فيقول..

ويوم تجي العونة على الناس في البلد .. تخبيني في الفرن أم وطيف

تجي العونة: وهو أوان حفر السواقي وضم الزرع وحفر القنى مما يحتاج إليه في هذا المعنى. والعونة، إنما تكون في بلاد الملتزمين التي فيها الأوسية، وهو أن غالب الملتزمين إذا أخذ قرية أو كفراً من كفور الريف يزرع فيها أو في الكفر جانباً من الأرض والبقية يعطيها للفلاحين بخراج معلوم ويسمى هذا الجانب الذي يزرعه زرع الوسية فيرسل ثيراناً وأخشاباً ومحاريث وما يحتاج إليه، ويجعل له وكيلاً ومحلاً معداً لأخشابه وبهائمه، ويقال لها دار الأوسية ويوكل من يصرف على البهائم وغيرها بحساب وضبط، فإذا احتاج الأمر لشيل الطين من الآبار أو لحفر القنى وضم الزرع، أمر المشد (شيخ الخفر) بالقرية أو الكفر رجلاً يقال له: الغفير فينادي العونة يا فلاحين، العونة يا بطالين، فيخرجون عند صبيحة النهار جميعهم ويسرحون للحفر أو لكل ما يأمرهم به كل يوم من غير أجرة إلى أن يفرغ الحفر والضم، وكل من تراخى أو تكاسل عن النسروح أخذه المشد وعاقبه وغرمه دراهم معلومة وبعض البلاد تكون العونة فيها على رجال معروفين بالبيوت مثلاً فيقولون يخرج من بيت فلان شخص واحد ومن بيت فلان شخصان بحسب ما تقرر عليهم قديماً وحديثاً فلا ينفك من عليه العونة منها وإن مات جعلوها على ولده وهكذا، فهي داهية كبرى على الفلاحين ومصيبة عظمى على البطالين، ولله الحمد أراح الله قريتنا منها إنما هي قراريط معلومة على الفلاحين لا يعرف الملتزم إلا إيرادها يأخذه كل سنة على التمام والكمال وإذا تخلف هو وغيره عن دفع الإيراد يأتي رجال الديوان

إلى القرية ولهذا كان يقول الفلاح: «ويوم يجي الديوان في البلد .. أهرُ على روحي من التخويف » وإن كان عليهم بعض عوائد ومظالم فليست كبلاد الأوسية لأنهم دائماً في تعب وكدر ، وغرامة وسخرة ، وهم زائد والناظم كان مقيماً ببلاد الأوسية فلهذا ذكر أنه إذا حضرت العونة على الناس في البلد: أي بلد الناظم والناس هم المخصصون بها لا كل سكان القرية .. ولعل الناظم كان ممن يسرح للعونة لقلة زرعه وشدة فقره وأنه متى غاب ساعة عن عياله من غير كسب احتاجوا إلى ذلك فلا يقدر أن يترك العونة ويذهب لشغل يكتسب منه فلهذا قال: تخبيني: أي تخفيني عن أعين الناس حتى لا يراني أحد ولا يسمع بي.

ويبدو أن هذه السخرة المعمرة قد تركت بصماتها العميقة لدرجة أن مظاهرها المتخلفة قد بقيت فى مصر حتى بعد نمو الرأسمالية الوطنية وتطورها من خلال تواجد مؤسساتها الاقتصادية والسياسية التى كانت تعبر عن ديمقراطيتها المظهرية الكاذبة والتى لم تعمل شيئاً على الاطلاق لإنهاء مظاهر السخرة الباقية فى الريف المصرى بواسطة احترام الشخصية الإنسانية للأجير الفلاحى ، وتغطية حياته العارية بعلاقات اجتماعية وقانونية متقدمة وإنسانية.. وذلك لأن هذه الديمقراطية كانت ديمقراطية خالصة للرأسمالية المصرية التى لم تكن قامت بثورة على الإقطاع المصرى بل كانت امتداداً اجتماعياً واستغلالياً له بدليل تحالفها معه ، وحفاظها الشديد على علاقاته ومظاهره فى مجال عمال الزراعة والتراحيل الذى يتحدث عنهم الميثاق الوطنى فيقول.. - كذلك فإن الملايين من العمال الزراعيين عاشوا فى ظروف أقرب ما يكون إلى السخرة تحت مستوى من الأجور يهبط كثيرا ليقترب من حد الجوع كما أن عملهم كان يجرى من غير أى ضمان للمستقبل ولم يكن فى طاقتهم إلا أن يعيشوا سني حياتهم خلال بؤس الساعات وقسوتها الرهيبة..

بصمات السُخرة فى ريفنا..

طوال عشرات السنين .. كان ريفنا المصرى بكفوره ، وعزبه وقراه تغطيه بصمات السُخرة اللعينة رغم حضارة القرن العشرين.. حيث كان هذا الريف مسرحاً لوقوع العديد من الحوادث اليومية ذات الطابع الوحشى على الأجراء الريفيين وخاصةً عمال التراحيل الذين كانوا يتعرضون للإهانة غير الإنسانية لأتفه الأسباب، فإذا ما تأخر بعضهم مثلاً عن طلوع الترحيلة لقدرٍ خارج على إرادته كأعذار المرض أو عدم القدرة على إعداد الزوادة « أى طعامه طوال الترحيلة» فإنه يُخطف من بيته أمام ذويه لكى يشحن مع الترحيلة غصباً عنه كأنه شئ من الأشياء، وكان هذا الخطف يتم عادةً مصحوباً بالضرب والإهانة أمام كل أهالى القرية بما فيهم حضرة العمدة الذى كان يباركه فى أغلب الأحيان مجاملةً للمقاول ورجاله الأشرار.. وفى الحالات التى لا يتمكن فيها المقاولون ورجالهم من اختطاف بعض العمال المتخلفين عن الترحيلة كانوا يلجأون للنيل منهم بالعمل الكيدى والتآمرى كالقتل وحرق الزرع أو باستعمال سلاح الكمبيالات البيضاء التى كان يحررها المقاولون لربط عمالهم بهم، هذا السلاح الذى كان يؤدى إلى حبس العمال وبيع منقولاتهم إن وجدت بفضل قضايا الحجز والتبديد التى يرتبها سلاح الكمبيالات البيضاء، حيث كان يتم الحجز على أشياء وهمية وغير موجودة أصلاً لدى العمال، وذلك بمعرفة العمدة وشيخ البلد والمحضر الذين كانوا يساهمون فى توريط العمال بحيث لا يمكنهم الإفلات من الوقوع فى جريمة التبديد الموجبة للحبس قانوناً..

وفى ساحات الحفر والردم، حيث امتصاص الجهد واعتصار العرق غزيراً من الحياة والعافية، كانت فرقعات العصى المتلاطمة بأجساد الشغالين فى الطين والوحل تقرع الآذان كل لحظة مصحوبة بألفاظ اللعنة والسباب.. يا أبو جتة، يا أبو لية، يا

خدام العمدة، يا ابن القرعة، يا ابن أم رقاقة، هذه الإهانات كانت تلاحقهم ابتداء من صباح العمل.. حيث كانوا يفتحون عيونهم من النوم عليه.. ففى كل صباح وقرب صلاة الفجر مباشرةً .. نطلق رجال المقاول نحو خيام العمال لإيقاظهم بالضرب على الخيام بالعصى الطويلة التى كانت تفزع العمال فيقوموا من نومهم مذعورين ومهرولين إلى أماكن العمل قبل طلوع الشمس.. ولهذا كانت الترحيلة الواحدة تستهلك كميات كبيرة من عصى الخيرزان لدرجة أن المقاول كان لا يحضر لزيارة مواقع العمل إلا ومعه ربطة أو أكثر من هذه العصى التى تحملها سيارته الفخمة وذلك كهدية مطلوبة ولازمة لرجاله..

والمعاملة الوحشية للأجراء الريفيين كانت تبدو أكثر وضوحاً فى وسايا الإقطاعيين عموماً.. فقد حدث مرة فى وسايا البدراوى باشا بشمال الدلتا عند مرور الإقطاعى عبد العزيز بك البدراوى للإشراف على عزيق القطن، وجود عودٍ من القطن أصابته الفأس خطأ عند العزيق، فما كان منه إلا أن أطلق مسدسه على العامل المتسبب فأرداه قتيلاً أمام زملائه..

ولذلك كان عمال التراحيل يرفضون العمل فى وسايا البدراوى خوفاً على حياتهم من بطش هذه العائلة الإقطاعية التى لجأت بسبب ذلك إلى أسلوب خطف أنفار التراحيل بالقوة وبدون أى مراعاة للعرف والقانون، حيث كان خفراء هذه العائلة الذين قد تم تجنيدهم من أشقياء الريف من أمثال القاتل، محمد الصافى، والشقى محمد أبو إبراهيم، يقومون بنصب الكمائن علناً جهاراً قرب مدينة طلخا لتصيد السيارات النقل المحملة بأنفار التراحيل العائدين إلى قراهم بعد العمل والعناء فى برارى الدلتا ومصارفها، وذلك لإجبار هذه السيارات ومن فيها على الذهاب إلى وسايا البدراوى لانتزاع عملهم الجسمانى بالتهديد والإرهاب.. وهذا

الأسلوب كان شائعاً فى كل عزب الإقطاعيين، حيث قد شهدت مثلاً عزبة الفردوس التى كان يملكها الإقطاعى صالح باشا لملوم بالوجه القبلى حوادث الضرب والتعذيب المروعة داخل السجن الخصوصى الملحق بالفردوس الإقطاعى، وذلك لإرغام عمال التراحيل وخاصة الوافدين منهم من الوجه البحرى على إطالة أيام الترحيلة بلا أجر، ولهذا كانوا يضطرون إلى الهروب ليلاً من جحيم هذا الفردوس..

وحتى النساء العاملات لم تنج من فظائع الإقطاعيين، ففى إحدى التفاتيش الزراعية بشمال الدلتا وقع حادث رهيب راح ضحيته عاملة من عمال الترحيلة التى كانت تعمل فى هذا التفتيش الإقطاعى، وهذه العاملة كان اعتراها أثناء العمل حالة من الإرهاق الشديد بسب حملها الذى كان فى شهوره الأخيرة، مما دفع زملاؤها إلى القيام بمقطوعيتها فى العمل وتكليفها فقط باحضار ماء الشرب لهم، وفى إحدى المرات التى كانت تحضر فيها الماء خارت قواها فاضطرت للجلوس تحت ظل شجرة بينما كان ناظر التفتيش يمر فرآها على هذه الحالة فنزل من حنطوره ودفعها فى بطنها دفعة قوية فماتت فى ساعتها..

الزوادة وأكلة الطرى..

.. هل تعرفون كيف يعيش عامل الترحيلة؟ إنه يعيش بأبخس أجر يمكن أن يأخذه عامل، إنه يعيش على البتاو والبصل. هذا ظلم اجتماعى ضد الدين وضد الإنسانية، وضد طبيعة البشر.. هذا ما قاله المناضل عبد الناصر عن الظروف التى يعيشها عامل الترحيلة الذى يذهب للعمل فى البرارى والصحارى حاملاً على كتفه فأسه وزوادته التى هى عبارة عن جوال مملوء بخبز البتاو الردئ المصنوع من الذرة المخلوطة بالحلبة أو البامية الناشفة، وكذلك محلبة المش والمخلل، والتى يعتمد عليها فى تغذيته طوال مدة الترحيلة رغم تفاهة قيمتها الغذائية من حيث عدم

تعادلها على الاطلاق مع قيمة ما يبذله عامل الترحيلة من تعب وجهد، ومن حيث فقرها الشديد جداً لخلوها من المواد الغذائية المناسبة..

وبجانب الزوادة كان يتناول عامل الترحيلة أكلةً واحدةً يتيمة غنيةً بمحتواها الغذائى هى الأكلة المعروفة لديهم بأكلة الطرى هذه الأكلة التى كانت تذهب إليهم مرة أو مرتين طوال فترة الترحيلة، وذلك من ذويهم عن طريق المقاول وفقاً للعرف المتبع فى تشغيل عمال التراحيل، وكانت تتكون من فطيرة أو فطيرتين أو طاجناً من الأرز المعمر والمدسوس فى الفرن..

وفى كثير من الأحيان كانت تنتهى زوادة العامل قبل انتهاء الترحيلة. ولهذا كان يضطر العامل إلى أكل بعض الأعشاب والنباتات كالسريس، والسلق، والجُعديض، كما كان يحدث لعمال الزراعة والتراحيل فى أندونسيا الذى تحدث عنهم المناضل الأندونيسى.. ساهور جو.. فى مقال نشرته مجلة السلم الاشتراكية فى يوليو سنة ١٩٦٥ حيث قال فيه.. وأخيراً هناك الفلاحون الزراعيون أو العمال الريفيون الذين لا يملكون أرضاً، ويعيشون من بيع قوة عملهم، وحين لا يكون هناك عمل، ينصرف العمال الزراعيون مثلاً إلى جمع الأغصان اليابسة وبيعها، إن حياة الشغيلة الزراعيين هى حياة شاقة، وليس نادراً أن يقتاتوا بأوراق الأشجار أو بما يقع تحت يدهم..

والحصيلة الغذائية التى يتناولها عامل الترحيلة من زوادته يومياً هى قرابة ألف جرام من خبز البتاو المصنوع من الذرة المخلوط بالحلبة أو البامية الناشفة تساوى حوالى ٢٤٠٠ سعراً حرارياً، وقرابة مائة جرام من المش منزوع الدسم تساوى حوالى ١١٥ سعراً حرارياً، وبذلك فإن جملة ما يحصل عليه العامل من قيمة غذائية خالصة لا تحقق غير ٢٥١٥ سعراً حرارياً - تقريباً - علماً بأن عامل الترحيلة يحتاج

يومياً إلى ٤٥٠٠ سعراً حرارياً كحد أدنى، وذلك على أساس أن أعمال الترحيلة من الأعمال الشاقة التى تحتاج غذاءً مضاعفاً ، ومتنوعاً .. وعلماً أيضاً بأن العامل الذى يبذل جهداً بسيطاً وعادياً يحتاج يومياً إلى ٣٠٠٠ سعر حرارى على أن تحتوى هذه الكمية على مائة جرام بروتين ثلثها على الأقل بروتين حيوانى، ومائة جرام من الدهن هذا بخلاف الفيتامينات المطلوبة لحياة الجسم وبنائه..

وبسبب النقص الشديد فى غذاء عامل الترحيلة من حيث الكمية ، والكيفية فإن بناءه الجسمانى يتعرض باستمرار لعملية هدم شديدة ومستمرة، حيث يُحرم هذا البناء الجسمانى يومياً من قرابة ألفى سعر حرارى هذا بخلاف حرمانه من مزايا البروتينات الحيوانية والنباتية، ومن الدهنيات والفيتامينات والمعادن اللازمة.. كما أنه يتعرض كذلك لحالة أخرى من الشيخوخة المبكرة من جراء تفشى الأمراض والطفيليات فى جسمه نتيجة لشربه واستعماله مياه البرك والترع والمصارف فى برارى الدلتا..

الأجور الهزيلة..

..وهكذا نرى أن الفرق بين الشعب المصرى كبير جداً وبُين وظاهر وواضح، فمن فلاح مسكين يملك من الأرض لا شئ ويعمل فى أرض سواه بما لا يسُد له رمقاً ولا يقيه من جوع وبرد .. إلى مالك غنى يحوز ألف فدان أو أكثر، ومن فلاح فقير يملك بعض الفدان أو فداناً أو اثنين أو ثلاثة على الأكثر، إلى ثرى من كبار المالكين قد تُجاوز الفدادين التى يملكها العشرة آلاف أو أزيد .. ومن فلاح يعمل طوال اليوم فى الحقل لقاء قرشين أو قرش ونصف القرش فى الأيام العادية، ولقاء خمسة قروش فى موسم القطن، إلى ابن غنى يصرف بلا حساب ويرمى الجنيهات كيفما اتفق.. هذا ما كتبته جريدة الحساب المصرية الاشتراكية فى ٦ مارس عام

١٩٢٥ عن التفاوت الطبقى فى الريف المصرى وعن الأجور الهزيلة التى كان الأجراء الريفيين من عمال زراعة وتراحيل يتقاضونها بعد ثورة ١٩١٩ التى قد استشهد فيها الآلاف منهم، حيث قدموا أعز التضحيات وأغلاها لهذه الثورة التى خانها تحالف الإقطاع ورأس المال من أجل مصالحه وأطماعه التى قد ظهر بعضها فى المشاركة فى رأس مال الشركات الزراعية والإنشائية المملوكة لرأس المال الأجنبى، ولهذا أصبح الخائن أحمد زيور باشا رئيس الوزراء المصرى، رئيساً لمجلس إدارة الشركة المصرية الجديدة وهى شركة إنجليزية زراعية كانت تملك ٤٨٢٥ فداناً. وأصبح جلاد الشعب المصرى إسماعيل باشا صدقى عضواً فى مجلس إدارة شركة كوم أمبو الزراعية، وعضواً أيضاً فى شركة الأشغال والمبانى وهى شركة إنجليزية كان رئيس مجلس إدارتها سبنكس باشا مفتش الجيش المصرى سابقاً، وأصبح حسين سرى باشا عضواً فى مجلس شركة كوم أمبو الزراعية، هذا بخلاف غيرهم وغيرهم من البشاوات والبكوات المنتفعين بثورة ١٩١٩..

والحديث عن تطور أجور عمال الزراعة والتراحيل يتطلب منا العودة إلى أيام حفر قناة السويس، حيث ظهر أيامها أول وثيقة تتعرض للأجور بالمفهوم الحديث، فقد نصت مادتها الثانية على أن أجور العمال فى حفر القناة سوف تتراوح ما بين قرشين ونصف وثلاثة قروش بخلاف الجراية اليومية التى قدرتها اللائحة بقرش صاغ واحد، ثم أصدرت شركة القناة منشورها الذى وزعته على الأهالى وذلك بعد تعطيل تنفيذ اللائحة السابقة، متضمناً دعوة الفلاحين المصريين للعمل فى حفر القناة مقابل أجر يتراوح ما بين ستة إلى ثمانية قروش يومياً.. ولكن ما جاء فى اللائحة والمنشور كان مجرد حبر على ورق بدليل أن الأجور الفعلية التى صُرفت للعمال فى حفر القناة قد صُرفت على النحو التالى..

أولاً.. الحفر فى ترعة الماء العذب الذى كان العمل فيها سهلاً وكان الانتاج الشهرى للعامل ٥٠ متراً مقابل ٥٧٧ مليماً شهرياً للعامل.

ثانياً.. الحفر فى أرض قناة السويس وقد قسمت إلى ستة فئات .

١- الحفر فى أرض يسهل حفرها وترفع الأنقاض فيها إلى جسور عالية وكان إنتاجها الشهرى ٤٥ متراً مقابل أجر شهرى قدره ٦٠٩ مليماً للعامل .

٢- الحفر فى أرض تبدى تربتها بعض الصعوبة وكان الإنتاج الشهرى للعامل ٤٠ متراً مقابل ٦١٦ مليماً شهرياً .

٣- الحفر فى أرض صعبة على سابقتها وكان الإنتاج الشهرى للعامل ٣٥ متراً مقابل ٦٠٦ مليماً شهرياً .

٤- الحفر فى أرض تكون تربتها من رمال متحجرة وكان الانتاج الشهرى للعامل ٢٥ متراً مقابل ٤٣٢ مليماً شهرياً .

٥- الحفر فى أرض تربتها حجرية ويصعب حفر ونقل انقاضها إلى جسور عالية وكان الإنتاج الشهرى للعامل ٢٥ متراً تقريباً مقابل ٥٢٩ مليماً شهرياً .

٦- الحفر فى أرض صخرية وترفع تربتها إلى جسور عالية وكان الإنتاج الشهرى للعامل ٢٥ متراً تقريباً مقابل أجر شهرى قدره ٦٢٥ مليماً..

وجملة هذه الأرقام تمثل البداية الأولى لتاريخ الأجور الحديثة فى مصر وبالذات بالنسبة لعمال الزراعة والتراحيل، كما تمثل أيضاً أول عملية معروفة لربط الأجور بالإنتاج فى بلادنا.. ولهذا فقد توالت بعدها أرقام أخرى توضح مدى الأجور الهزيلة لعمال التراحيل حتى بعد إلغاء السُخرة فى عام ١٨٨٩، حيث اعتمدت سلطات الاحتلال البريطانى فى هذه الأيام مبلغ ٤٠٠ ألف جنيه فى السنة كأجور

لعمال المشاريع الزراعية والإنشائية، وذلك على أساس أن متوسط أيام العمل بالنسبة لهؤلاء العمال لا يتعدى مائة يوم فى السنة، وأن عدد العمال المطلوبين لإنجاز هذه المشاريع هو١٤٣ , ٢٣٤ عاملاً، وأن هذا يعنى أن الأجر اليومى للعامل لا يزيد عن ١٨ مليماً يخصم منها كل عمولات المقاولين والسواقين، ولكن ما حدث فعلاً هو تخفيض عدد العمال المطلوبين إلى ٢٠٢ ألف عامل كانت أجورهم الإجمالية تقدر بمبلغ ٢٥٠ ألف جنيه، ويعنى هذا أن أجر العامل كان يتراوح بين ١٢ و١٣ مليماً فى اليوم..

ومن ثم فالأرقام السابقة تدلنا على تناقض أجر الأجير الريفى تناقضاً بيناً وشاسعاً عن الأجر الذى كان يتقاضاه قبل ذلك بقرابة ثلاثين سنة فى حفر قناة السويس، وتدلنا كذلك على تناقضها بشكل صارخ عن أجور عمال التراحيل الأفارقة الذين كانوا يعملون فى مناجم الترنسفال بجنوب أفريقيا كما سبق أن ذكرت من قبل..

وتظل هذه الأجور على حالتها تقريباً فلا تتحسن إلا بقيام الحرب العالمية الأولى حيث اضطرت الجيوش البريطانية بعد هزيمتها فى موقعة غاليوبولى وقبلها أى فى عام ١٩١٥ بالتحديد إلى الاستعانة بعمال التراحيل الصعايدة للقيام بأعمال الحفر اللازمة للجيوش البريطانية التى كانت تتصدى للجيوش التركية، وفى وصف هؤلاء العمال الصعايدة كتب الليفتنانت كولونيل البريطانى ب.ح ايلجود يقول.. إن الصعيد ينتج رجالاً ذوى بناء جسمانى رائع ، ولا يضارعهم إنسان آخر فى قدرتهم على الاحتمال، فهم يؤدون كافة الأعمال اليدوية فى يسر وسهونة، ولكنهم يبلغون حد الإعجاز فى أعمال الحفر، وهى الأعمال التى كانت الحملة تتطلبها بالذات حينذاك ولكن مع اتساع العمليات الحربية تزايد طلب عمال التراحيل

الصعايدة والبحاروة على السواء وذلك بشكل جنونى حتى تحول إلى سُخرة مفضوحة، ولذلك تُحدثنا الأهرام الصادرة فى مارس ١٩١٦ فتقول.. وجد العمال العاطلون وغيرهم من الأشخاص الذين ألفوا العمل، الفرصة سانحة للالتحاق بخدمة السلطة العسكرية التى تعطى الفاعل أجرة فى اليوم لا تقل عن سبعة قروش..

وإذا نظرنا إلى ما قالته الأهرام عن ارتفاع أجر الفاعل أى عامل التراحيل الإنشائية بدون تحفظ كبير فإننا نفهم أن الأجراء الريفيين من عمال زراعة وتراحيل قد ارتفعت أجورهم عن ذى قبل، ولكنها هبطت مرة أخرى بعد ثورة ١٩١٩ كما قالت جريدة الحساب فى عام ١٩٢٥..

وبعد الحرب العالمية الثانية لم تزد هذه الأجور على خمسة قروش يومياً للعامل، وذلك فى سنوات ١٩٤٥ و١٩٤٦ و١٩٤٧ فى حين أن أيام عمله كانت تتراوح ما بين ١٥٠ و١٨٠ يوماً فى السنة، وهذا يبين أن الأجر السنوى لعامل الزراعة والتراحيل كان يتراوح فى هذه الفترة بين ٧,٥ و٩ جنيهات بينما كان متوسط أجر زميله عامل الصناعة والتجارة والخدمات هو مبلغ ٣٥ جنيهاً فى السنة وفقاً لاحصائيات ١٩٤٢..

وحتى عمال الزراعة والتراحيل فى محافظتى قنا وأسوان لم تزد أجورهم اليومية عن خمسة قروش فى هذه الأيام رغم صدور الأمر العسكرى الذي أصدره الحاكم العسكري مصطفى النحاس باشا وقتئذٍ فى عام ١٩٤٤ بشأن تحديد الأجر اليومى لهم بعشرة قروش بعد كارثة تفشى وباء التيفود بينهم مما أدى إلى موت الآلاف منهم. وكان ذلك محاولةً لترضية الرأى العام وامتصاص سخطه وغضبه..

ولذلك عاش هؤلاء العمال عيشةً يُسيطر عليها الإفقار المطلق، لا لأن أجورهم

لم ترتفع مع ارتفاع الغلاء وزيادة الأسعار فى أيام الحرب العالمية الثانية وبعدها، بل لأن هذه الأجور كانت منخفضة جداً بالنسبة لأسعار ما قبل الحرب. وهذا الإفقار كان عميقاً فى حياتهم حيث كانت أجورهم ضئيلة إذا ما قورنت بأسعار المعيشة الضرورية، بدليل أن أجورهم الشهرية فى نفس سنوات ١٩٤٥ و١٩٤٦ و١٩٤٧ كانت لا تزيد عن ٧٥ قرشاً فى حين أن مصلحة الاحصاء المصرية قد قدرت سنة ١٩٤٢ أن ما يحتاج إليه عامل ، وزوجته ، وأربعة أولاد .. لشراء طعامهم وكسائهم يجب أن لا يقل عن أربعة جنيهات و٤٣ قرشاً وذلك وفقاً للأسعار الرسمية وليس وفقاً لأسعار السوق السوداء..

وفى عهد حكومة الوفد الأخيرة تحسنت هذه الأجور تحسناً طفيفاً، حيث أصبح متوسطها السنوى ١٤ جنيهاً فى السنة علماً بأن هذه الحكومة أصدرت الأمر العسكرى رقم ٩٩ سنة ١٩٥٠ بشأن غلاء المعيشة لعمال التجارة والصناعة دون عمال الزراعة والتراحيل، ولهذا ارتفعت أجور هؤلاء العمال إلى ١٥٠٪ بالنسبة للأجور التى تقل عن خمسة جنيهات شهرياً وإلى ١٠٠٪ بالنسبة للأجور التى لا تزيد على عشرة جنيهات شهريا..

وبينما كان كل أجراء الريف من عمال زراعة وتراحيل يعيشون حياة الإفقار المطلق طوال العهد الملكى وحكوماته سواء كانت دستورية ، أو سعدية ، أو وفدية. كان الإقطاعيون وأغنياء الريف يزدادون ثراءً وغنى، حيث ارتفعت دخولهم من الإيجارات الزراعية من ٣٥ مليون جنيه فى عام ١٩٣٩ إلى ٩٠ مليون جنيه فى عام ١٩٤٥ ذهبت كلها إلى جيوب وخزائن ١٣ ألف إقطاعى و٢٣ ألفًا من أغنياء الريف..

وبقيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ظهر اهتمام ملموس لتحسين أحوال عمال الزراعة

والتراحيل باعتبارهم قوة منتجة ومحرومة، وقد تمثل هذا الاهتمام فى نصوص قانون الإصلاح الزراعى الأول رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ الذى نص لأول مرة على تحديد ساعات عملهم بثمانى ساعات، وبمقتضى هذا القانون حددت اللجنة العليا للإصلاح الزراعى الحد الأدنى لأجورهم بمبلغ ١٨ قرشاً يومياً، وعشرة قروش بالنسبة للأحداث، والنساء، علماً بأن الحد الأدنى لعمال الصناعة والتجارة فى هذه الفترة كان محدداً بمبلغ ٥ , ١٢ قرشاً فى اليوم.. ولذلك فيبدو أن هذا التحديد كان بمثابة تعويض اجتماعى وقانونى لكافة الأجراء فى الريف بواسطة قانون الإصلاح الزراعى الذى كان يمثل ضربة أساسية لمستغليهم الإقطاعيين من بكوات وبشاوات..

ولكن عدم نضوج الوعى الطبقى لدى هؤلاء الأجراء جعلهم لا يستفيدون تقريباً من التحديد الجديد لأجورهم، حيث ظلت هذه الأجور حتى عام ١٩٦١ تتراوح ما بين ١٠ إلى ١٥ قرشاً يومياً، وفى بعض مناطق الجمهورية كانت تهبط الأجور حتى تصل إلى خمسة قروش يومياً. ويؤكد ذلك ما نشرته مجلة الاشتراكي فى عددها الصادر فى ٢٥ يوليو سنة ١٩٦٦ حيث قالت.. وبدأت محافظة البحيرة فى مشروعها لتقضى على أخطر جريمة ترتكب فى حق الإنسانية، ودرست حالة عامل الترحيلة لتكشف حقائق رهيبة.. أنه يعمل عن طريق مقاولي الأنفار الذين يتقاضون من الشركات صاحبة العمل ١٨ قرشاً كأجر يومى، وبعد استقطاع العمولات للمقاول الكبير وسواق الأنفار، والتوابع إلى آخر قائمة المستغلين، يقبض العامل خمسة قروش فى مقابل جهده وعرقه منذ شروق الشمس حتى غروبها.. ونتيجة لهذا فقد بقيت أجور عمال الزراعة والتراحيل ضئيلة، وكانت تتضاءل أكثر فأكثر عندما تصل إلى أيديهم للعوامل التالية :

١- إنجابهم الأطفال بكثرة وبغير حساب..

٢- حرمانهم من الخدمات الصحية ، والتموينية ، والتعليمية باعتبارها أجور غير مباشرة..

٣- أوقات العمل غير المدفوعة الأجر التى كانت تفرض على العمال بإطالة يوم العمل وتكثيفه، حيث كان المشروع الذى يتطلب تنفيذه ألف عامل كان يتم تنفيذه فى نفس المدة الزمنية بنصف هذا العدد أو أقل، وخير دليل على ذلك ما قرره شاهد الإثبات الأول في قضية الاختلاس بالشركة العقارية التى نظرتها محكمة جنايات الإسكندرية فى مايو سنة ١٩٦٧ بقوله.. أن الشركة قد تعاقدت مع المقاول الدرديرى على القيام ببعض الأعمال الترابية بالمنطقة نظير ١١ قرشاً للمتر المكعب، ونص العقد على أن يورد المقاول الدرديرى ثمانية آلاف عامل ولكنه لم يورد غير ١٦٢٠ عاملاً، وكان الاتفاق أن يُنقل العمال إلى مقار عملهم بواسطة الشركة، وقد لاحظ أن عدد العمال لا يتناسب مع العملية نفسها..

٤- أيام العمل غير المدفوعة الأجر كذلك مقابل عودتهم إلى قراهم. يشهد على ذلك ما نشرته مجلة الاشتراكى فى عددها رقم ٣٨ حيث قالت.. وكان المقاول فوق ذلك يخصم منه أجر ٣ أيام فى الشهر، ولذلك كان الكثير من عمال التراحيل يرفضون العمل بلا أجر مفضلين العودة إلى قراهم البعيدة مشياً على الأقدام نتيجة انتهاء طعامهم الذى يحملونه.. وكان منظرهم أثناء هذه العودة الجماعية يشبه تماماً مواكب الجوع التى تعرفها القارة الهندية ومن ثم فقد كان يثير الشفقة على أحوالهم البائسة ولهذا فإن بعض مأمورى المراكز كانوا يستضيفونهم فى مراكز البوليس، وذلك بحبسهم شكلياً كمتشردين حتى يتمكنوا من إعطائهم جراية الخبز وتذكرة السفر إلى قراهم، وفى عام ١٩٤٧ أثناء عودتهم الجماعية من برارى الدلتا داهم وباء الكوليرا فقط الآلاف منهم فى الطريق بجانب أسمالهم وفئوسهم موتى بلا أكفان

وبلا قبور.. ومع تكرار هذه العودة الجماعية لعمال التراحيل ظهرت أسطورة تقول.. فى يوم من الأيام وتحت هذه الشجرة جلس بعض أنفار التراحيل العائدين إلى قراهم ليأخذوا أنفاسهم من تعب المشى فسمعوا فلاحاً يحكى لصاحبه حكاية الثعبان الكبير الذى حرقه منذ أيام ثم جاءت جماعة من الترحيلة لتستريح فى نفس المكان فوجدوه فظنوه ثعباناً مشوياً من السمك فأكلوه من شدة جوعهم، وما كاد الفلاح ينتهى من سرد حكايته حتى سقط سامعيه من عمال التراحيل مغشياً عليهم لأنهم هم الذين قد أكلوا نفس الثعبان فى السنة الماضية..

ولذلك كان ومازال يعيش الأجير الريفى بهدمة واحدة من الدمور لا يخلعها من على بدنه إلا بمرور الحول أو أكتر، وفى طعامه لا يقتات بغير البتاو وغموسه من المش والمخلل. وهكذا يعيش صانع الحياة فى الريف الذى قد انتجت يديه تلالاً من الذهب الأبيض وجبالاً شامخة من الحبوب والبقول، وأشجاراً مثمرة بالطيبات وأنهاراً من العسل المصفى..

السفر والليل والعذاب..

إن زيادة الدخان المتصاعد من القرية كان يمثل أمارة على سفر الترحيلة، حيث كانت تشتعل الأفران والكوانين فى بيوت القرية لإعداد الزوادة وعشوة السفر للأنفار المسافرين، وبعد غروب هذا اليوم كانت تتوافد السيارات اللورى لنقل الترحيلة بفئوسها وزواويدها إلى مواقع العمل، وكانت تقوم الزوجات والاخوان والأمهات بنقل الزواويد الخاصة بذويهم إلى السيارات اللورى بينما يرددون دعوات صالحات بالسلامة، وفى هذه الأثناء ينتشر رجال المقاول بعصيهم الطويلة فى كل دروب القرية ليستنهضوا الأنفار ويستحثوهم على الذهاب فوراً إلى مكان تجميع السيارات استعداداً للسفر، وكان يتم ذلك بطريقة تتصف بالغباء والوقاحة،

حيث كان هؤلاء الرجال الأجلاف يمزقون لحظات الوداع الدافئة الحلوة التى كان يخطفها أنفار الترحيلة من الحياة بين الأهل والزوجات، وذلك بالدق على أبواب البيوت مع التفوه بألفاظ مبتذلة وبذيئة مثل.. « كفاية يا فطوم إنتي هاتخلصى على الراجل خليه يخرج يا بنت المديوب.. حرام عليكي يا نفوسة قطعت نفس الراجل يا بنت الحرام.. يا واد يا ابن أمونة اطلع بقى مش كفاك جُمعتين من يوم الدخلة على الرهوانة بتاعتك.. » ولهذا كان يسرع العمال للخروج من بيوتهم لدرجة أن بعضهم كان يرتدى بقية ملابسه فى الطريق ليذهب إلى مكان حشد السيارات، حتى يتم شحنهم ومعهم فئوسهم ، وزوايدهم بمعدل يتراوح ما بين خمسين إلى ستين نفر بالسيارة الواحدة..

وتبدأ الترحيلة مشوار السفر والليل والعذاب إلى مواقع عملها فى هذه السيارات اللورى العارية من أى غطاء حتى من القماش أو المشمع لحماية الأنفار من لفحات البرد أو من شواشي الشجر فى الطريق، وبعد عدة ساعات من السفر المتواصل تصل السيارات إلى مواقع العمل ، والتشغيل قرب الفجر أو على مشارفه فتلقى بالترحيلة على جسور إحدى الترع أو المصارف بلا مأوى غير ثلاجات البرارى والأرض لمبتلة، ولهذا فقد كان عمال التراحيل لا يتعرضون فقط لقسوة الإنسان الذى يستغل أخاه الإنسان .. بل كانوا يتعرضون لقسوة الطبيعة وأهوالها، حيث يقدم لنا الشاعر متولى عبد اللطيف وصفاً يؤكد المعنى السابق فى قصيدته بعنوان.. ترحيلة.. والتى يقول فيها...

فى شهر الصوم أحب أسهر ... لحد الصبح ما يزهر

وتطلع شمس.. تتمخطر ... تقدم رجل وتأخر

ساعتها قلبى بيزأطط ... وفيه عصافير بتتنطط

ونـــور الفجـــر بـــيخطط ضـــلوع الليـــل بلـــون أشـــقر
وأنـــا واثنـــين مـــن اصـــحابى يحـــاوطونى مـــن اجنـــابى
وانـــا شـــبعان ومتســـحر أدان الفجـــر مـــن حبـــه
ســـمعناه مـــن حـــدا القبـــه بـــيعلا حبـــه عـــن حبـــه
وواحـــد ماشـــى يســـتغفر ضـــلام الليـــل مـــالوش مركـــز
لهـــو بيرحـــل ولا بيركـــز وفى الشـــارع حـــدا المركـــز
لقيـــت رجليـــه تتعثـــر جتـــت عـــلى الأرض نعســـانة
بتتقلـــب وقرصـــانه وشاشـــهم ســـمر بهتانـــه
مـــافيش فـــيهم بصـــيص أحمـــر مـــافيش غيطـــان تغطـــيهم
مـــافيش غـــير أرض تحتـــيهم وبـــاين تحـــت جلابـــيهم
دوايـــر جلـــه لونهـــا اســـمر هـــدوم قرفانـــة مـــن روحهـــا
مـــاهيش مرتاحـــة مطرحهـــا ومـــوس الوقـــت شرحهـــا
بقـــت هرابيـــد بلـــون أغـــبر عـــددهم زاد عـــلى الـــعشرة
فـــريحهم عـــيش عليـــه عفـــره خـــلاص الشـــمس أهـــى بتطلـــع
وجـــيش النمـــل قـــام يشـــبع ونـــور الصـــبح أهـــو بيوســـع
يخـــلى الضـــلمة تتدحـــدر وفيـــه عصـــافير بتتـــنطط
وبيـــت جنبينـــا بيـــبطط وواحـــد قـــام بيـــتمطط
ولـــورى جـــاى وبيزمـــر ودانهـــم حافظـــة زمارتـــه
وقـــاموا خشـــوا مندرتـــه وغســـلوا الـــوش بعفارتـــه
وخـــولى يقـــول هانتـــأخر وانـــا واتنـــين مـــن أصـــحابى

يحـــاوطونى مـــن اجنـــابى عـــــذابهم أخ لعـــــذابى
وصرخـــة فى قلبنـــا بتكـــبر تقـــول للفجـــر يـــا فجـــرى
أنـــا مســـجونة مـــن صـــغرى وحـــا اخـــرج بكـــره مـــن قـــبرى
ويومهـــا الوضـــع.. يتغـــير مـــافيش ترحيلـــة تـــتشرد
ولا حتجـــوع ولا تبـــــرد وتســـتقبل صـــباح أسعـــــد
مـــافهش كبـــير ولا صـــغير

ثلاجات البرارى..

فى قلب هذه الثلاجات .. كانت تعيش الترحيلة ، وأنفارها بلا حماية مناسبة ضد قسوة الطبيعة فى هذه السياحات ذات الليل القطبى الطويل ببرده ورياحه وصقيعه، ولذلك فقد كانت الخيام الممزقة التى يحضرها مقاولو الأنفار لإيواء العمال عديمة القيمة فى هذا المناخ الممطر والبارد، مع العلم أن هذه الخيام كانت تستعمل بشكل غير صحى وغير إنسانى حيث كانت الخيمة المعدة لأربعة جنود كانت تستقبل أربعين نفر من العمال، وكثيراً ما كانت تشهد هذه الخيام فى جوف الليل ثخنات والوجيعة المتفجرة على شكل آهات ، وصيحات بسبب المرض وعذابه الذى يحاصر العمال دائماً أثناء العمل والانتاج نتيجة لعملهم الشاق فى الطين والوحل حفاة عراة بغير أحذية أو ملابس واقية، ومن المؤسف أن صيحات المرض هذه كانت لا تجد أى صدى غير دعوات الأنفار وابتهالاتهم للسماء ونجومها..

الموت بالجملة..

من المؤسف والمحزن معاً أن حياة عمال التراحيل باعتبارهم صناع الحياة فى الريف كانت رخيصة للغاية، حيث كانت تصاحبهم الأخطار باستمرار عند ذهابهم

وعودتهم للعمل بالسيارات اللورى التى كانت وما تزال تقذف بهم إلى الموت بالجملة بما يتم لها من حوادث مفجعة فى مواسم العمل على الدوام حتى صارت هذه الحوادث تمثل وباءً مهنياً فى مجال التراحيل. وطريقة النقل هذه كانت مصدر ربح فاحش لرأسمالية المقاولات التى كانت تحقق بواسطتها وفراً كبيراً فى مصاريف نقل الترحيلة، ولهذا كانت تنخفض مصاريف نقل نفر الترحيلة الواحد من مائة قرش مثلاً إلى ١٥ قرشاً، كما كانت - أيضاً - مصدر ربح جنونى للرأسمالية فى مجال نقل البضائع بالسيارات التى كانت كذلك تحصل على أجور نقل مضاعفة بتحميل السيارات بأكثر من ضعف عددها المقرر من الأنفار فى سبيل ذلك كانت تقوم بتسيير السيارات ليلاً رغم مخاطر السفر ليلاً .. وذلك لتفادى الوقوع فى قبضة رجال المرور، ولهذا فقد كان مقاول الأنفار وصاحب السيارة النقل هما المسئولين الأساسيين عن وقوع الكوارث التى يتعرض لها عمال التراحيل عند نقلهم، وليس سائق السيارة الذى تحتضنه وحده المسئولية الجنائية وفقاً للقانون الجنائى غير العادل وغير السليم..

ولقد كان عدم اقتراب هذه المسئولية الجنائية من مقاولى الأنفار وصاحبى السيارات باعتبارهم قتلة عمال التراحيل من أجل المال والربح، سبباً مشجعاً فى تفشى هذه الحوادث حتى وقتنا هذا. ففى عام ١٩٥٨ مثلاً قد انقلبت السيارة النقل المملوكة للمقاول إبراهيم شلبى بميت غمر ليلاً بجهة ميت العز وكانت تحمل قرابة خمسين عاملاً مات منهم ١٥ عاملاً من قرية واحدة وفى عام ١٩٥٩ انقلبت ليلاً السيارة النقل قيادة السائق فهمى الزغندى من ميت غمر بجهة محافظة الجيزة وكانت تحمل ٥٠ عاملاً مات منهم أربعة عمال من قرية واحدة. وفى عام ١٩٦٣ انقلبت السيارة النقل قيادة السائق عبد المنعم مملوك بجهة دسوق وكانت تحمل عدداً كبيراً من العمال مات منهم سبعة عمال، وفى نفس العام انقلبت ليلاً السيارة المملوكة باسم عبده بدوى بميت غمر وكانت تحمل ٥٠ عاملاً مات منهم أربعة

عمال، وفى عام ١٩٦٥ انقلبت ليلاً السيارة النقل ملك أبو رمضان بميت غمر فى ترعة بمحافظة الجيزة وكانت تحمل ٦٦ عاملاً غرق ٢٦ عاملاً من قرية واحدة منهم اثنين أشقاء وعريس جديد. وفى عام ١٩٦٧ قد انقلبت السيارة النقل ملك الحاج جاد بميت غمر ، وكانت تحمل عدداً كبيراً من العمال مات منهم ستة عمال وأصيب ٢٦ عاملاً، ويؤيد ذلك ما نشرته الجمهورية بصدد هذا الحادث الأخير فى عددها الصادر ٢٥ يناير سنة ١٩٦٧ حيث كتبت تقول..

الجمهورية من بيوت عمال التراحيل.. قرى ثلاث تعيش منذ أول أمس فى قصة كالخيال، عزبة عبد الرازق، قرية المعالى، عزبة الفضالى، كلها تتبع مركز منيا القمح بمحافظة الشرقية، وتضم عدداً كبيراً من عمال التراحيل، ستة منهم لقوا حتفهم.. أمر الرئيس جمال عبد الناصر بأن تقرر لهم معاشات استثنائية لأول مرة فى تاريخنا.. و٢٦ أسرة تنتظر التعويضات التى أمر الرئيس عبد الناصر بصرفها.. وستة وعشرون أصيبوا فى الحادث. قامت الأجهزة المختلفة.. النقابات.. والشئون الاجتماعية بصرف سبعة جنيهات لكل منهم..

.. زارت الجمهورية بيوت شهداء العمال أمس، واليوم موعدنا مع قصة المصابين كلهم فى مساكنهم.. التى لا يمكن أن تطلق عليها كلمة.. مساكن.. إلا تجاوزاً - كلهم قالوا أُخرجنا من المستشفى بعد علاج سريع لا يتفق مع خطورة حالتنا، وطُلب أن نعود بعد ٤٠ أو ٤٥ يومًا..

ولم يكتف كاتب هذا التحقيق الصحفى بتسجيل مشاهداته الواقعية لظروف حياة عمال التراحيل بل أضاف إليه انفعالاته التى تعبر عنها قصيدته التى ختم بها تحقيقه الصحفى والتى تقول..

عامل تراحيل..

وعايش كل يوم فى رحيل

يجرى ورا اللقمة..

واليه بطمى النيل

حياته هدمة بينتجها فى نول الليل

عايش يكافح وطافح حسرته وعليل

تفضل عياله جعانة يشوف لوحده الويل

وفى ليلة ماتوا.. يا عينى

استُشهدوا ستة..

على التراب اترموا حته ورا حته..

أبو الحجاج حافظ

ولا شك فى أن هذه الحوادث الأليمة وكثرتها كانت دليلاً على الحياة الرخيصة لعمال الزراعة والتراحيل فى المجتمع المصرى الذى كان ظالماً لهم بسكوته على تصرفات الرأسمالية المتسببة أصلاً فى وقوع هذه الحوادث التى كان يموت فيها بالعشرات من عمال التراحيل. ولهذا فكثيراً ما قد شاهدت قُرانا موكباً واحداً يضم العديد من النعوش التى كانت تحمل شهداء العمل من عمال التراحيل، وذلك مثل الموكب الرهيب الذى شهدته إحدى قرى مركز ديرب نجم فى عام ١٩٦٥ والذى كان يضم ٢٦ نعشاً لشهداء هؤلاء العمال..

والشئ العجيب أن تتواجد هذه الكوارث فى بلد يضم أكبر وأقدم حركة نقابية فى أفريقيا والدول العربية ، وفى بلد يجتاز مرحلة التحول الاجتماعى ويحتل العمال والفلاحين فيه نصف مقاعد مجلس الأمة ، وهيئات الحكم المحلى، وذلك دون أن

يتخذ الموقف المناسب لتفادى وقوع مثل هذه الكوارث المؤلمة كما يتم عادةً فى حالات الكوارث التى تصيب عمال المناجم فى البلاد الصناعية حيث تقوم النقابات والأحزاب اليسارية بتنظيم مواكب الحداد ، والاحتجاج بقصد تجريم وفضح الرأسمالية المسئولة عن هذه الكوارث، ولكن للأسف فهذه التقاليد الثورية لم تظهر بعد فى مصر التقدمية التى يوجد بها الكثير من الشخصيات العمالية القائدة فى المجال السياسى والنقابى. هذه الشخصيات التى لم تقف حتى لحظة حداد واحدة تحية وتكريماً لشهداء هذه الكوارث من عمال التراحيل .. مراعاة للتضامن الطبقى والأخوة العمالية وفقاً للشعار الخالد.. يا عمال العالم اتحدوا.. وكان يعنى ذلك غياب الوحدة العمالية بين عمال الصناعة والزراعة، هذه الوحدة التى كانت تملك القدرة على تنبيه المجتمع بضرورة توفير الحماية اللازمة لعمال الزراعة والتراحيل، وبالتالى تطوير المسئولية الجنائية عند وقوع مثل هذه الكوارث لتمتد أساساً إلى مقاولى الأنفار وصاحبى السيارات النقل بحيث يصبحوا وحدهم المتهمين الرئيسيين .. حتى لا يفلتوا من العقوبة الجنائية التى يجب أن تصل إلى السجن المؤبد، وحتى لا يفلتوا أيضاً من العقوبة المدنية التى يجب أن تصل إلى مصادرة ملكياتهم مهما كانت باسم الزوجة والأولاد، وذلك لمصلحة عائلات الضحايا من العمال، وخاصةً أن رأسمالية النقل والمقاولات يتفنون الآن فى الإفلات من هذه المسئولية المدنية التى تمسهم وحدها الآن وذلك بواسطة تهريب الملكية ، وتسجيلها باسم الزوجة ، والأولاد ، والأقارب من شيالى الملكية، وبواسطة تهجير الأموال من مجال إلى آخر ومن محافظة إلى محافظة أخرى..

الرجال والذئاب..

من الطبيعى أن يمتص موسم التراحيل عدداً كبيراً من عمال الريف فى بلادنا، وبالتالى كان يغيب عن القرية أغلبية رجالها العاملين والمنتجين بحيث لا يبقى قاعداً

فيها غير العجزة والمرضى والأطفال والنساء والشيوخ وكذلك العاطلين بالوراثة من أبناء الأعيان والذوات فى الريف، الذين كانوا يقضون كل وقتهم فى اللهو والعربدة، حيث كانوا يستغلون غيبة الرجال فى أعمال التراحيل البعيدة عن قراهم ويتحولون إلى ذئاب مصابة بالسُعار الجنسى، ولهذا كانت تكثر محاولتهم الأثيمة للنيل من أعراض الرجال الغائبين ، ومن شرفهم عن طريق الإغراء وعن طريق التهديد الذى كان يصل إلى درجة السطو الليلى على البيوت الخالية من رجالها، وذلك لدفع الزوجات إلى الإرتماء فى أحضان الرذيلة، وبسبب ذلك كان يصبح جو القرية كلها مشحوناً بغبار الشائعات والافتراءات التى تُضخمها أحاديث السهراية وأحاديث المصاطب التى كانت تتناول فلانة وعلانة ، والتى لا تتوقف عادةً إلا بعد مجئ الرجال، حيث تتلاشى بعدها كل شائعات الإثم والعربدة والفراغ..

المجتمع يسخر بصناع الحياة..

.. على السلخانة يا أسطى.. هذه العباراة البذيئة والمهينة كان يطلقها الناس فى المدن والبنادر وخاصة الأطفال والصبية عند رؤيتهم السيارات اللورى المحملة بعمال التراحيل، كما كان بعض الصبية يستقبلوهم بالقذف بالطوب وبقشر البطيخ، وكان يتم ذلك دوماً بدون أى رادع مادى أو أدبى من قبل المجتمع المصرى القديم الذى لم يتدخل لمنع هذا العمل الشائن عن طريق المدرسة أو المسجد أو عن طريق أجهزته الإعلامية من إذاعة وصحافة، ولذلك كانت إهانة أجراء الريف وصناع الحياة فيه شيئاً عادياً ومألوفاً لدرجة أن أسماعهم كانت تقرعها باستمرار ألفاظ الإهانة التى تقول..« إمشى يا خُطرى.. إمشى يا ترحيلجى.. إمشى يا تملى..»

ولهذا فقد عاشوا فى المجتمع المصرى القديم كأنهم منبوذين أو مواطنين من الدرجة الرابعة والخامسة..

الأمراض الاجتماعية لعمال التراحيل..

لا خلاف على أن حياة عمال التراحيل بل وكافة الأجراء الريفيين قد ولدت فى صفوفهم عدداً من الأمراض الاجتماعية الضارة.. أولها.. تفشى الأمية وانتشارها بينهم وكان ذلك سبباً فى حرمانهم من كل ألوان المعرفة.. وثانيها.. وضوح قصورهم العقلى والذهنى إلى حد السذاجة المفرطة حيث أن بعضهم كان لا يفرق بين الصيدلية ودكان الفسخانى وبعضهم كان يظن أن هناك شجراً يطرح - قمر الدين.. وثالثها.. سيادة الجهل والخرافة فى حياتهم، ولذلك عاشوا متواكلين وفاقدي الثقة فى أنفسهم وفى كل شئ كما تعبر أمثالهم التى تقول..

أهل الشقا للشقا الله يشقيهم - جُم يروحو للهنا عتر الشقا فيهم

والتى تقول أيضاً. حد يقدر يقول للغولة انتي عينك حمرة، ولا تُعانى من قال فعل، دا المية ما تطلعش العالى، الباب اللى ييجى منه الريح سده واستريح.. ورابعها.. الإحساس العميق بالغربة الاجتماعية حيث تسيطر عليهم مشاعر الغجر والبدو الرحل التى كانت تبدو فى بُعدهم وهربهم من تجمعات الناس، والتى تبدو فى أحاديثهم وتعليقاتهم الهامة.. إحنا بُياته، إحنا سككية، إحنا دايما مشيين فى البر، إحنا يوم مشرقين ويوم مغربين، وإذا سمعوا فى قريتهم من يقول نبنى قنطرة أو مسجداً أو مدرسة، فإنهم كانوا يعلقون فى خفوت وتمتمة قائلين.. روح يا شيخ اللى يقعد فى البلد يبقى يمشى عليها، أو يصلى فيه أو يودى عياله للخوجه فى المدرسة.. ولذلك فقد عاشوا على هامش الحياة والمجتمع محبوسين فى عزلتهم وقابعين فى غربتهم الاجتماعية العميقة مرددين فى نفوسهم.. البعد عن الناس غنيمة.. وخامسها.. بروز الأنانية فى صفوفهم بشكل ملموس يؤيد ذلك وجود أكثر من عامل قيدة فى كل ترحيلة - هذا القيدة الذى كان ينتج مقطوعية ضخمة مقابل

قروش معدودات كل مدة زمنية وذلك ليرغم كل أنفار الترحيلة على تحقيق مثلها بغير مراعاة لظروف الصحة والسن، ويؤيد ذلك أيضاً عدم تضامنهم عندما يُفترى على بعضهم بالضرب والألفاظ المُهينة. ولهذا فقد كان الصراع الطبقى خافتاً بينهم وبالتالى فإن مقاومتهم لمظالم الإقطاع ورأس المال كانت شبه مفقودة..

الأمراض الصحية والمهنية..

وكذلك أدت ظروف حياتهم إلى محاصرتهم بعدد من الأمراض الصحية والمهنية، مثل النزلات الشُعبية والأمراض الصدرية - وحالات الإسهال والدوسنتاريا، وأمراض الكبد، والأمراض الطفيلية كالبلهارسيا والإينكلستوما، وأمراض المسالك البولية.. وذلك بجانب مرض الشيخوخة المبكرة، وحالات الروماتيزم، وأمراض سوء التغذية..

العذاب المشترك..

لا تختلف حياة عمال الزراعة والتراحيل فى بلادنا عن حياة أخوتهم فى البلاد الرأسمالية والبلاد النامية، وذلك من حيث ما تسببه لهم من عذاب، وما تولده من هموم، حيث ظروف عملهم مشتركة وواحدة، فالأعمال الشاقة ذات الساعات الطويلة، والأجور الهزيلة، والبطالة بكل أشكالها - والاحتقار والمهانة من قبل المجتمع كلها أمور تلازمهم، وحتى طعامهم تقريباً واحد، هذا الطعام الذى لا يتعدى الخبز الردئ، والبصل والمخلل، وبعض النباتات الشيطانية، وكذلك ملابسهم متشابهة فهى لا تبارح الجسد طوال السنة، بحيث تتحول إلى معمل نشيط لتفريغ القمل والبراغيث بغير حساب.. وطبعاً فهذه الظروف تشكل عذابهم المشترك الذى لا ينتهى بسرعة لارتباطهم القوى بالفلاحين. هذا الارتباط الذى يعتبر مصيبتهم، كما يقول لينين.. «ولكن عمالنا الريفيين ما يزالون مرتبطين ارتباطاً

قوياً جداً بالفلاحين، والمصائب المشتركة التى تحل بجميع الفلاحين ما تزال ترهقهم كثيراً جداً، ولهذا لا يمكن لحركة العمال الريفيين أن تكتسب أهمية شاملة للبلاد كلها، لا اليوم ولا فى مستقبل قريب، فالأمر بالعكس بقايا القنانة، استئصال روح عدم المساواة بين الفئات الاجتماعية المعلقة من جميع المؤسسات الروسية، واجتثاث ازدراء عشرات الملايين من أبناء (الشعب السافل)، تلك مسألة تتخذ من الآن دلالة شاملة عامة، وكل حزب يطمح إلى الاضطلاع بدور حامل لواء الحرية، لا يستطيع الوقوف من هذه المسألة موقف اللا مبالاة».

وهذا يعنى أن بقايا العلاقات الاجتماعية المتخلفة مازالت راسخة فى أغوار الريف المظلمة رغم قيام الثورات الديمقراطية والاجتماعية العظيمة، حيث شاهدت أرياف العالم بعض مظاهر العلاقات الإقطاعية متشبثة بالحياة والمجتمع.. فمن المجر مثلاً قبل تحولها الاشتراكى كان الأجراء الزراعيين يسكنون جماعات فى حظائر الماشية لدرجة أنهم كانوا يباشرون نسائهم أمام بعضهم البعض أو خلف ستائر من القماش الرقيق، وفى كثير من الأحيان كان السادة الإقطاعيون يطردونهم من حظائرهم لينامو فى العراء الرحيب، وكانوا يعانون من الجوع وقلة الغذاء إلى حد أن أطفالهم كانوا يتناولون فطورهم من الخبز المفتت فى النبيذ بعد تدفئته، ولذلك كانوا يذهبون إلى مدارسهم وهم فى حالة سكر تام، مما دفع نُظار المدارس إلى كتابة تقارير إلى الحكومة المجرية عن هذه الظاهرة علماً بأن الدافع لكتابة هذه التقارير ليس هو الحرص على مصلحة التلاميذ بل هو عدم استفادة النظار من تشغيل هؤلاء التلاميذ بالمجان فى حقولهم المجاورة لمدارسهم وذلك بسبب سُكرهم المستمر طوال فترة الدراسة..

وتحكى لنا القصة الإيطالية.. فونتمارا.. لمحات من حياة الفلاحين والأجراء الريفيين فى إيطاليا فتقول..عندما ذهب وفد من فلاحات قرية فونتمارا إلى المدينة

المركزية للمطالبة بعدم قطع مياه الرى عن أرضهم استقبلهم الحارس الزراعى فى مبنى البلدية قائلاً.. لا تسمحوا لهن بالدخول وإلا ملأن المبنى كله بالقمل.. ولم يتوقف الحارس عند هذا الحد، بل انطلق يحكى بأعلى صوته قصصاً لا تصدق عن أهالى فونتمارا وعن قملهم، وظل جميع من كانوا فى الميدان يضحكون حتى كادت أحشاؤهم أن تتمزق، وضغط رجل كان يقف فى إحدى الشرفات أمعاءه بيده من شدة الضحك، وبعد كل هذه الإهانات أمام سراى البلدية اتضح لوفد فلاحات فونتمارا أن رئيس البلدية الذى يعمل مقاولاً كبيراً فى ناحيتهم هو الذى قطع الماء ليروى بها أرضه التى نهبها من البلدية..

وحول أجور الأجراء الزراعيين تواصل.. فونتمارا.. الحديث بقولها.. دون تشيركوسترا هو الوحيد الذى يستطيع مساعدتك لأن له صلات مع أناس كثيرين.. ودون تشيركوسترا يدين لى، وليبراردو، وسكاربونى، بمبلغ ضئيل من المال هو عبارة عن أجرنا عن إعادة زراعة أشجار الكروم فى أحد الحقول القديمة التى يملكها وراء الجبانة، والتى قضى السيل على نصفها فى العام الماضى، وفى صبيحة يوم أحد ذهبنا إليه لنتقاضى أجرنا.. وحتى نتيح الفرصة ليبراردو ليسأله النصح ويطلب معونته للحصول على عمل بالمدينة... صديق الشعب هو الوحيد الذى يستطيع أن يساعدك.. قلت لبيراردو.. صافحنا دون تشيركوسترا ودعانا للدخول فى أدب جم ثم أخذ يسألنا.. كم تبلغ جملة المستحق لكم عندى..؟ كان مديناً لبيراردو بأجر خمسة عشر يوماً، ولرفائيل سكاربونى ولى بأجر اثني عشر يوماً. لم تكن الحسبة عسيرة على شخص متعلم مثل دون تشيركوسترا، ولكن وجه صديق الشعب تجهم فجأة، وظل صامتاً بضع دقائق، وبعد أن ذرع حجرة المكتب مرتين أو ثلاثاً جيئةً وذهاباً، أطل من النافذة ثم ذهب وأدنى أذنه من ثقب الباب وأنصت حتى يتأكد من أن أحداً لا يسترق السمع وبعد ذلك اقترب منا، وقال فى

صوت خافت.. هذا فظيع، لا يمكنكم أن تتصوروا كم تضيق الحكومة علينا الخناق، كل يوم تصدر قانوناً جديداً موجهاً ضدنا، لم نعد نملك حتى حق التصرف فى أموالنا.. تركت هذه الكلمات تأثيراً معيناً فى نفوسنا، هل بدأت الحكومة إذن تُضيق الخناق على الأشراف أيضاً.؟

.. ما على سموكم سوى أن تنطقوا بكلمة واحدة حتى يهب جميع الفلاحين للثورة.. أجاب بيراردو فى لهجة تخلى عنها منذ بعض الوقت... لا لا ليس هو الموضوع.. قالها دون تشيركوسترا فى فزع... بل هو تعسف من نوع آخر أشد وطأة، انظروا، هذه هى الظروف الثلاثة التى أعددتها لكم، واحد لكل منكم، وبه الأجر المتفق عليه، كان على المكتب ثلاثة ظروف بالفعل.. أعددتها كلاً حسب الأجر المتفق عليه، دون أن تنقص سنتيماً واحداً هل تصدقونى... ولم لا نصدقه ؟.. شد على أيدينا مرة أخرى عرفاناً بالجميل واستطرد.. تسلمت عقد العمل الجديد الخاص بالعمال الزراعيين فى المنطقة ،وكان صدمة رهيبة ، وغير متوقعة بالنسبة لى إقرءوه بأنفسكم.. تناولت فى ارتياب الصحيفة التى قدمها لى دون تشيركوسترا، وبعد إلحاح قرأت عدداً من النقاط محدودة بعلامات حمراء، تنص على تخفيض أجور العمال الزراعيين بمقدار أربعين فى المائة بالنسبة للرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٩ و٦٠ سنة أى بالنسبة لنا... أليس غريباً ؟ خبرونى، أليس هذا رهيبا ؟.. وقال يقاطعني ثم أضاف.. أكمل فما زالت هناك بقية... وقرأت تتمة لما سبق أن الإصلاحات، والزراعات الجديدة أو إعادة زراعة أشجار الكروم والزيتون والفاكهة وإقامة أكوام السماد أو تعبئتها أو إزالتها، وحفر الحفر وخلع النباتات وتمهيد الطرق، وكلها ذات صيغة غير عادية، قصد بها التخفيف من حدة البطالة، هذه الأعمال يجب أن يقل الأجر المدفوع فيها عن الأجر المذكور أعلاه على أن لا تتجاوز نسبة التخفيض خمساً وعشرين فى المائة.. أليس هذا أمراً لا يمكن احتماله ثم

قال المحامي مواصلاً حديثه.. ما شأن القانون بالعلاقة بين الملاك والفلاحين؟ ما المصير الذى ستنتهى اليه حرياتنا لو سادت الحال على هذا المنوال؟..

كانت الخدعة واضحة، اختراعاً جديداً لاختلاس أموالنا باسم القانون، وكان دون تشيركو دائماً أستاذاً بارعاً فى مثل هذه الأحابيل، ومن بين ما يمتاز به من مظاهر الخبث شراؤه الكمبيالات المتأخرة السداد من البنوك المحلية، بثلث أو ربع قيمتها الأصلية من الفلاحين المدينين، وذلك بأن يجعلهم يعملون باليومية حتى يسددوا القيمة كلها، بحيث يكون عملهم وتعبهم بدون أجر، على أن يحصل هو قيمتها من كدهم..

وتمضى بنا كذلك فونتمارا فتحكى لنا عن نظرة الأجراء الريفيين فى إيطاليا تجاه طعامهم من خبز الذرة الكريه فتقول كان الشئ الوحيد الجميل حقاً فى الكنيسة هو لوحة السر الإلهى، فوق المذبح، كانت تمثل يسوع المسيح وهو يمسك بيده قطعة من الخبز الأبيض، ويقول.. هذا هو جسدى.. الخبز الأبيض هو جسدى، الخبز الأبيض هو ابن الله، الخبز الأبيض هو الحقيقة والحياة، لم يقصد يسوع بقوله هذا الخبز المصنوع من دقيق الذرة الذى يأكله الفلاحون، ولا القربان العديم الطعم الذى يتخذه القساوسة رمزاً للتضحية فى صلاة القداس كان يسوع يمسك فى يده قطعة حقيقية من الخبز الأبيض وهو يقول.. هذا هو... الخبز الأبيض جسدى... أى جسد ابن الله فأنا.. الله.. معه، ومن ليس لديه خبزاً أبيض، من لا يملك سوى الخبز المصنوع من دقيق الذرة فهو بعيد عن رحمة الله، لا يعرف الحقيقة، وليست له حياة، مثل الخنازير والحمير والماعز التى تعيش على القاذورات، أما بالنسبة لذلك الذى لا يملك خبزاً أبيض، لذلك الذى لا يعرف سوى خبز دقيق الذرة، فكأن المسيح لم يكن له وجود قط، وكأن الخلاص لم يحدث على الاطلاق، وكأنه ما زال ينتظر مجئ

المسيح ليخلصه.. وكيف لا نفكر فى قمحنا الذى تجشمنا فى سبيل زراعته الجهد والعناء طيلة العام، ثم استولى عليه البنك منذ مايو الماضى وهو لا يزال نباتاً أخضر ثم يبيعه كله دفعة واحدة بسعر كبير جداً ؟ زرعناه بعرقنا ولكننا لم نأكله، إنما أكلنا خبز الذرة، مع أن المسيح يقول.. من فوق هذا المذبح المقدس.. هذا هو جسدى.. لم يعنى قطعة من خبز الذرة، إنما قصد بقوله قطعة جميلة من الخبز الأبيض المصقول... وصلاة... أبانا الذى فى السموات، أعطنا خبزنا كفافنا.. لا تشير بكل تأكيد إلى خبز الذرة، ولكن لخبز القمح.. وكذلك خبز أنشودة العشاء الربانى.. يا خبز السماء الحى.. لا تعنى خبز الذرة، بل خبز القمح..

وعن ظاهرة الغربة الاجتماعية التى تسود عمال الزراعة والتراحيل حتى فى أمريكا بلد الدولار وناطحات السحاب تحدثنا مسرحية لارجال وفيران للكاتب الأميركى شتاينبك فتقول..

العامل الزراعى جورج يتحدث إلى زميله لينى الأبله فيقول.. الفتية أمثالنا ممن يعملون فى مزارع تربية الماشية هم أكثر الناس إحساساً بالوحدة فى العالم، إنهم بلا أسرة، وبلا بيت يكدون ويكدحون فى مزارع تربية الماشية، ويخرجون من هذه المزرعة ليشتغلوا فى تلك، فهم بلا أمل ولا غاية فى الحياة..

ونعود إلى بلادنا مصر حيث لم يكتب عن الريف وكادحيه غير قلة قليلة فى مقدمتهم فيلسوف الثورة العرابية وخطيبها الشيخ عبد الله النديم فيقول كانت السُخرة واستخدام الأبدان بلا شكر وبلا أجرة، وكذلك القس الصعيدى الأب غبريط والأديب اليونانى جيورجيوس فيليوس بقصته «المشتغلون بالقطن» الذى يصف لنا فيها الحياة البائسة وغير الإنسانية التى يعيشها الصبية والأحداث من عمال الزراعة ، والتراحيل العاملين بمحالج الأقطان فيقول.. تمزق صفارة الماكينة

بلا رحمة هدوء الكون العميق، ومعها بعد قليل تتجاوب القرية – وتبدو أول تباشير الصباح فتنطلق أصوات الحياة التى تهب نافضة عنها الليل: صياح الديوك، ونباح الكلاب ثم صوت المؤذن من فوق المآذن، وخارج الباب الحديدى يلتف بضع عشرات من الأطفال فى أكياس بالية تكدسوا فوق بعضهم بعضاً يتلمسون الدفء اللذيذ وسط هذا البرد الذى يؤلم العظام طول الليل إيلاماً شديداً، أطفال ممن يعملون فى الماكينة ويأتون من القرى النائية، إنهم لا يستطيعون أن يذهبوا إلى أكواخهم عندما ينتهى العمل ليلاً فى الساعة الثامنة، ثم يعودون إليه ثانيةً فى الخامسة صباحاً مع فتح باب الماكينة لذلك آثروا النوم هنا أكواماً وقد تعرقصت أجسادهم المرتجفة آناء الليل متدثرين بتلك الخرق البالية ومن حين لآخر يمزق صدورهم الصغيرة، سعال شديد..

على صفارة الماكينة ينهض الصغار، ويجلسون ، ويفتح الباب محدثاً صريراً وتبدأ الحركة متمهلة متئدة.. ويفد العمال جماعات رجالاً، وبنات، وأطفالاً صغاراً ويدلفون إلى الفناء من بابه الكبير متشردين فى الزريبة.. ويسرع كل منهم إلى مكانه..

ويصف الظروف التى تحيط بهؤلاء العمال الصبية أثناء العمل فيقول.. الماكينات كلها تدور وتدور محدثة دوياً شديداً، ترج المكان رجاً يجعل الطابق كله يهتز، ويتصاعد تراب كثير كما تخرج من كل ماكينة زغباء القطن الدقيقة مغرقة الصالة كلها فى غيام يحول دون الرؤيا، ثم تحط على كل شئ وفى كل مكان، على الملابس وفى الأعين وتدخل إلى الصدر، إن الذى لم يعتد هذا يستحيل عليه تحمله مدة طويلة ما أن يلفه حتى يأخذ فى السعال، ولكن هؤلاء الصبية تعودوه، إنهم يستنشقون هذا الموت أربع عشرة ساعة فى اليوم.. وغداً، وبعد غد، وأيام قادمة أخرى طيلة دوران

الماكينة، فى الظهيرة وبعد الظهر، ما كانوا ليتوقفوا عن العمل ليتناولوا ما أحضروه معهم فى الصباح من كسرات خبز جاف ملفوف فى خرقة صغيرة قذرة.. أو ما سيأتى لهم به أحد الاقارب من الكوخ البعيد.. إنما وهم واقفون إلى العمل يزدردون مأكلهم، محظوظ هذا الذى يحضر «جرايته» أمه أو أخوه الصغير سيقفون هم يرقبون بينما هو يأكل «جالساً» على كوم القطن.. وكلما تقدم اليوم تفقد أوجه الأطفال الشاحبة الباهتة، هذا القليل الذى تبقى لها من نضرة الصباح، وعندما ينتصف النهار يوحى منظرهم بعيونهم المتعبة التائهة أنهم على وشك أن يناموا، إنها ساهمة يعجب الإنسان كيف ترى..

كما يصف لنا حالة العمال الكبار خلال العمل فيقول.. إن هؤلاء العمال اللاهثين أنصاف العراة المبتلين، فى حركة غريبة تلفهم ستر الأتربة (إن الاقنعة ألزم ما تكون لعمل كهذا ولكن من يأبه لمثل هذا الذى يبدو ترفاً)، وكلما تكرر الإيقاع صار العمل أسرع.. ثم تسمع لهث هذه المخلوقات المتعبة وفجأة يتعالى صوت به بحة كأنه خرج من طيات الزمن اللا نهائى، صوت قلق الإنسانية المتعبة يصل حتى هنا وإلى جحيم هذا العصر، عصر هؤلاء الناس المعذبين...